اللغة الفرنسية وأدبها

كيف نشأة وتطورا

ووصلا الى حالتهما الحاضر

— ٣ —

للاستاذ جورج يتقولا وبس

اختلف العلماء في منشأ الشعر الحماسي الفرنسي ، غير انهم أجمعوا على انه لم يتولد من التقاليد اللاتينية ، ولذا لم يبق أمامنا سوى الينابيع السلتية والفرنكية ، أي أن أمتي السلت والفرنك ، هما مهد الأمة الرومانية التي كونتا الأمة الفرنسية وأنشأتاها ، ولكن العالم الايطالي الذي قام بأبحاث عديدة في هذا الصدد ، قد بيّن بأدلة لا تقبل دحضاً ولا تفنيداً ، إن الشعر الحماسي الفرنسي ، يستمد أصله من المصادر الجرمانية ، لان الفرنك وهم من قبائل الجرمان ، كانوا يتطرقون على شواطىء بحر الشمال ، ومايز والايستر والالب وقد كان لهم ، مثلما كان للجرمانيين جميعاً ، شعرهم القصصي الذي كان تارة تاريخيًا ، وأخرى تصليفيًا [1] وهو يشيد بمجد الآلهة ، كما يتغنى ببطولة ملوكهم الأقدمين .

ولا يجب أن يفهم من هذا ، أن كل ما ظهر من الأغاني « التودية » [2] قبل احتلال الجول وبعده ، وكل ما جمعه الملك شارلمان منها يتصل بالشعر الحماسي الفرنسي بطريق مباشر . فهذا الشعر لا يمكن انتاجه إلا من اللغة الفرنسية نفسها ، أو من اللغة اللاتينية التي تحورت في بلاد الجول بمرور الزمن .

وعند ما نبذ الفرنك لغتهم الأصلية ، واندمجوا في العنصرين الجولي والروماني ، واتخذوا اللغة اللاتينية عوضاً عن لغتهم ، وذلك في أواسط القرن السادس المسيحي ، ظهر بدون ريب شعر حماسي باللغة اللاتينية ، أي اللغة الرومانية القروية ، فالفرنك والحالة هذه ، كانوا لجموع الشعب الجالوروماني ، كالطبيعة للمسيحي ، فقد أيقظوا الاستعداد الشعري الفطري ، الذي كان غافياً في نفوس السلتيين ، تحت السيادة الرومانية ، والسيطرة الادارية القوية ، يضاف الى ذلك الاستعداد الذي هيأته الديانة المسيحية ، كما يضاف اليه عدم استقرار حالة المجتمع الجديدة ، والفاقة العقلية ، والارستقراطية الجالوررومانية ،

(١) Mythique (٢) التودية هي القصائد التي كان الفرنك ينشدونها عند ما احتلوا بلاد الجول

النابعة لملوك الفرنك الجدد ، التي كانت شديدة الغلو للأعياد والأعمال والأحداث . فهذه الأرستقراطية قد نفضت عنها رداء الترف ، ونبذت الأفكار الرفيعة السامية ، والتعابير الراقية ، وانغمست في حمأة جهالة العامة ، واندمجت في الأمة ، بكل ما في هذه من خشونة وجفاء من جهة ، وعبقرية شعبية من جهة أخرى ، فأدى ذلك الى الوحدة الأخلاقية والنعمة الاجتماعية اللتين ترتب عليهما ظهور الشعر الحماسي الأول بقوة وروعة[1]

أغنية رولان أو أغنية رونسيفو

نرى لزاماً علينا ، لتتبع نشأة اللغة الفرنسية وأدبها ، ولظهور هذا الأدب ثانية في مراحله الأولى ، أن نلم في بدء الأمر إلماماً بسيطاً ، بدرة الشعر الحماسي الفرنسي ، ونعني بها « أغنية رولان » ثم نبتعد عنها قليلاً لنعود اليها بعد اتمامنا البحث في تطور اللغة وأدبها في عهدها الأول ، ولذا نادنا ثانية البحث المتصل الحلقات الذي تتبعناه وفقاً لتاريخه وسيره ، إلى « أغنية رولان » التي على الرغم من قدمها وروعتها وبهائها ، لم تطبع لأول مرة باللغة الفرنسية ، إلا في عام ١٨٣٧ . نقلاً عن مخطوط أثري ثمين محفوظ في مكتبة اكسفورد بانجلترا ، وتوالى طبعها بعدئذ مرات عديدة ، من ذلك الزمن حتى وقتنا هذا .

وعلى الرغم مما في الأدب الفرنسي من تحف ودرر ، فان « أغنية رولان » تعد درة هذه التحف والدرر من الوجهة القصصية ، لأنها في شكلها الرائع ، القصيدة الأكثر قرباً من زمن البطولة ، فقد دُوِّنت بالكتابة عندما كان المجتمع الفرنسي رائده الحماسة وبُغيته الفروسية ، وروحه بكل خواطرها وجوارحها ماثلة الى معامع القتال ، ووقائع الطعن والضرب ، بعد ما فقد كل قوة له في الخلق والابداع ، لكنه ظل في الوقت نفسه محتفظاً بحماسة قوية ، للاستمتاع بأمثال هذه الأشعار القصصية التاريخية ، والتي قُصَّتْ الى الظرافة من نواحٍ عديدة .

ولا يتبادر الى الذهن ان هذه الأغنية تفوق ما في الأدب الفرنسي على مرِّ السنين ، بل قد كانت في زمنها تحفة نادرة ، إذا قيست بما سبقها وبما تبعها مباشرة ، مما يماثلها في القصص الحماسية ، وسرد أعمال البطولة ، فهي والحق يقال ، من جهة الشكل ، جافة يابسة خشنة ، ومن جهة اللغة فقيرة جامدة ، لا مرونة فيها ولا سلاسة ، لكن حوادثها تسير متسلسلة ، دون تكلف ولا إجهاد ، وتتسم ببساطة طبيعية ، من غير أن يعكر صفوها مقصد لغوي أو غاية أدبية ، فانشاؤها تسجيلي محض ، ولغتها تفصيلية قصصية ، فهي ترسم الأشخاص ، وتبين نسالهم وأعمالهم ، من غير أن تتغلغل الى ما في نفوسهم ، لتعبّر عن خواطرها وبواطنها

(١) يسمي الفرنسيون القصائد الحماسية التي تسرد أعمال البطولة : Chanson de geste

وتبدي عواطفها وما يجول بخاطرها ، فكانوا أحرى أن كانت ترعى الى مقصدين اثنين ، وهما التوفر على خدمة الملك ، وتعزيز الأصداء الخالدة للفرنسيين في الدين والمعتقد ، وهاتان الغايتان [illegible] خدمة الوطن ، وعاطفة التمسك بالأرض التي ولد [illegible]

وكانت أغنية رولان [illegible] ، وفي نظر الفرنسيين ، فريدة في نوعها لأنها [illegible]

الشعراء المحترفون

وفي تعاقب الأيام نشأت طبقة من الشعراء الخاصية أو المغني بها ، وقد توفر عليها شعراء [illegible] ينشدون في قصور أمراء المقاطعات الفرنسية ، فيتغنون بالقصائد المختلفة لأعمال البطولة وروائع الوطنية ، سواء كانت حوادثها واقعية ، أو خيالية نسبت الى الخرافة ، لا ريب ، متناسين ما في ذلك ما يجري في البلاد ، وما يقع في غيرها بين الأمم الأخرى ، مثل معارك اسكندر الأكبر وسواه من عباقرة الحرب ، وفاهري الشعوب ، كما أن هؤلاء الشعراء كانوا يتغنون بقصائدهم في الميادين والطرقات ، يستدرون أكف الأهالي ، ويستجدون أموال الأمراء والفقراء .

وكان المنشدون المذكورون بين شعراء ينظمون ما يتغنون به ، وبين منشدين يتناولون من الناظمين قصائدهم ليتغنوا بها ، ويتألفون من فئتين ، يطلق على الأول اسم Troubadoure وهي التي تتكلم لغة أوك أو لك ، وتنتقل في جنوب فرنسا ، والثانية وتسمى Trouvère ومسرح نشاطها في شمال فرنسا ، ولا سيما في مقاطعة بيكارديا الكائنة في الشمال الشرقي بالقرب من بلجيكا .

وما هي إلا فترة من الزمن حتى أخذ الشعراء ينظمون في اختراع قصص البطولة ، لإرضاء أميال الأمراء والحكام الاقطاعيين ، ولإشباع رغبات عامة الشعب ، حتى خرجوا بها عن حدود الحوادث التاريخية فطفقوا يتخبطون فيها ويخلطون ، وينحرفون عن الوقائع الحقيقية ، ويضيفون الى التاريخ ما شاءوا وشاء لهم الهوى من جهة ، والنفحة الشخصية من جهة أخرى ، حتى غدت قصائدهم التي تصف أعمال البطولة ، خرافية أكثر منها تاريخية ، علاوة على خلوها من كل الأفكار السامية ، والمثل الأدبية . فقد تحولت الى كلام مرصوص وجمل مقفاة تسرد حوادث مجونية ، ووقائع خيالية ، للتسلية والترويح عن النفس

وعلى الرغم من وجود ثلاث من هذه القصائد الحماسية : تلك أغنية رولان ، والنيبلنغين أو ثلاثاً أخرى مماثلة لها ، وهي التي عشرة قصائد مقتطفة من القصائد المشار اليها . لعد

الركن المكين الذي ترتكز عليه أشعار البطولة والفروسية في الأدب الفرنسي .

وكان الفرنسيون فيما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، شديدي الميل الى الأدب القصصي ، من روايات وحكايات ، دون اهتمام بالوقائع الحربية ، والحوادث التاريخية ، التي كانت بمثابة لي الأبطال الوطنيين ، اذ كل ما كانوا يبتغونه هو اشباع نهمهم من الأقاصيص دون تطلع الى مصادرها ولا الى اشخاصها ومع ذلك فقد كانوا أشد ميلاً الى القصائد الحماسية ، غير انهم يقبلون بشوق وشغف ، كل ما من شأنه ان يسليهم ، ويروح عن قلوبهم وأنفسهم سواء كانت موضوعاته من النوع المحلي الوطني ، أو من انواع غريبة أجنبية ، حتى فسحت تلك الفترة من الزمن ، بما لا يحصى عدده ، من الأقاصيص المختلفة الأشكال والألوان .

الادب الفرنسي والحروب الصليبية

وكانت الحروب الصليبية ، في ذلك الوقت ، قد اشتدَّ أوارها ، وطفق شعراء اللغة اللاتينية ، يدبجون القصائد الحماسية في وصف وقائعها ، وسرد حوادثها ، فخطر لأحد المنشدين الجوَّالين ، أن يستخلص من هذه القصائد ، قصة شعرية باللغة الفرنسية ، فوضع «أغنية انطاكية» وأردفها آخر «بأغنية بيت المقدس» بعد ما استولى الصليبيون على هذه المدينة ، وتوَّج جودفروا دي بويون الفرنسي ، دوق لورين السفلى ، ملكاً عليها .

وعندما كثر الاقبال على سماع هذه الاقاصيص ، استحثَّ الشعراء قرائحهم في خلق الحوادث ، وابتداع الوقائع ، وابتكار الملاحم ، ما بين حقيقي وخيالي ، وشرعوا ينسبونها الى جودفروا المشار اليه حتى رفعوا فعاله الحربية الخارقة ، وبطولته التي لا تجارى ، الى السماك الأعزل . والفت شعراء آخرون ، من حرب رواده ، ومن فتوحات اسكندر المقدوني ، مواد لقصص وضعوها ، وحوادث اخترعوها ووقائع اختلقوها ، وعمد غيرهم الى الميثيولوجيا اليونانية ، والى الحروب الرومانية ، والبلاد الشرقية ، والخرافات الشائعة في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا ، والى ما لدى الشعوب التي اجتاحت هذه البلاد ، من سلت وقوط وفرنك ورومان وغيرهم ، فنظموها في قصائد وقصص ونوادر وحوادث ، وطفقوا يلونها في القصور والدور والحانات والعارقات ، والجماهير تتهافت على سماعها ، تمجدوها الفئة ، ويدفعها الشوق ، ويجذبها الميل الشديد .

وعلى الرغم من تشعب الموضوعات ، وكثرة القصائد والأشعار والقصص والنوادر ، لم يعب الأدب الفرنسي منها ما يجد فيه شيئاً من السمو ، وكل ما هنالك أنها تكوِّن مادة غنية وذخيرة ذات دسامة ، يستطيع الأدب الفرنسي أن يلجأ إليها في المستقبل . (البقية)